من أين نبدأ ؟؟؟

تحديد البداية يوضح رؤية النهاية. لذا السؤال الملح و الواجب طرحه ابتداء هو: إصلاح التعليم **من أجل ماذ ؟؟؟** بمعنى أوضح، و حتى لا نظل نعيد التجارب المرّة المبنية على التشخيص المتوفر لذى الوزارة، علينا قبل كل شيء طرح السؤال الجوهري التالي و هو: إصلاح التعليم من أجل **بناء أي إنسان ؟؟؟**

فمن هنا يبدأ بناء التصور الصحيح للإصلاح. المدرسة كما هو معلوم، هي المصنع لرجال و نساء الغد، فما هو ذلك الإنسان الذي نريد صناعته لمستقبل البلاد و العباد ؟ و بالتالي ما هي المدرسة التي من شأنها صناعة ذلك الإنسان المنشود ؟؟؟ و عليه، و **كمستهلكين لخدمات قطاع التعليم**، فلنبدأ بتحديد ما لا نريده من مدرستنا، و الذي عانينا منه طويلا، حتى يتضح لنا من بعد ذلك ما نريده منها.

ما لا نريده بالتأكيد، هو إعادة صناعة ذلك الإنسان الفاشل الذي، بعد مروره من كل مراحل التعليم أو بعضها، تجد عقله قد اختُزل في **قرص صلب إما شبه فارغ مما ينفع صاحبه و مجتمعه أو مليء بمعلومات جامدة مع محرك للبحث** بسبب الإفراط في الحفظ من دون ما يكفي من فرص للتفكير. ذلك الإنسان الذي شلّت عنده القدرة على استعمال و استثمار ما في رأسه من معلومات و معارف عند الحاجة لذلك و على ابتكار غيرها، و العاجز عن إبداع برامج جديدة لحل المشاكل التي تعترضه في حياته الخاصة و العامة.

فمثل ذلك الإنسان غالبا ما يركن إلى السّكون كالجثة المحنّطة ينتظر أو يستجدي من دون لا ملل و لا كلل من يأخذ بيده فيُخرجه من كَفَنه ليعيده إلى الحياة. هو ذلك الإنسان الذي بسبب شلل فكره تمر من بين يديه فرص وفيرة للخروج من مأزقه، و لكن بسبب سوء تكوينه، ليس مهيئا ليراها، فلا يبحث عنها أصلا. فيصبح ذلك الإنسان اليائس، الذي **لا يتصور إلا الفشل، و** بفعل**"قانون الجذب الفكري" يعمل بحسب ذلك التصوّر المعشش في ذهنه، فلا ينجذب إليه فعلا إلا الفشل**. يقول قانون الجذب الفكري أن **قوة أفكار المرء** لها خاصية جذب كبيرة جدا في أحد اتجاهين متناقضين:

1) فكلما فكر في **أشياء أو مواقف سلبية** اجتذبها إليه بفعل تصرفاته الموافقة تلقائيا لما يفكر فيه
2) و كلما فكر أو حلم أو تمنى وتخيل **كل شيء جميل وجيد ورائع** يريد أن يصبح عليه أو يقتنيه في حياته فإن قوة هذه الأفكار الصادرة عن عقله تنتج تصرفات و سلوكيات تلقائية موافقة لها فيجتذب اليه كل ما يتمناه.

فتصرفات المرء المطابقة لما يفكر فيه إيجابا أو سلبا هي التي تجذب ما **تركز ذهنه على التفكير فيه** من نجاح أو فشل. لذا الإنسان السلبي، حتى في حال ما رأى الفرص المتاحة لخروجه من مأزقه تجده يبرع في تخيّل كل **المعوقات المُمكنة** و حتى المستحيلة، و التي يتصورّ أنها ستحول بينه و بين تلك الفرص، فلا يبادر و لا يحاول بالبدء في الدراسة و التخطيط ثم العمل، لأنه يتصوّر بمجرد خياله أنه قد حاول و قد فشل. فمثل هذا الإنسان لا يعوّل عليه في بناء مستقبل البلاد و العباد، لأنه أينما وُجد لا يأتي بخير لا في حياته الخاصة و لا في حياته العامة.

أما الإنسان الذي نريد بناءه بإصلاح التعليم فهو ذلك **الإنسان الإيجابي** الذي كالمهندس، **يتلذذ برفع التحديات** و **ينتشي بالإنجازات**، على غرار العقلية السائدة في المجتمع الأمريكي و الياباني و غيرهما، فيضع لنفسه و طيلة حياته أهدافا متواترة يحققها. ذلك الإنسان الذي يفتخر بإنجازاته و لا يرضى بضعف أداء مهامّه و مشاريعه في حياته الخاصة و العامة. ذلك الإنسان الذي لا يخشى المشاكل بل يعتبرها عادية و يتوقعها، فكلما اعترضته يقول في نفسه **"أنا لها"**، فيتصدى لها بالنظر في الواقع بكل موضوعية و روّية، ثم يستوعب معطيات الأمور، فيفكّر و يقدّر و يدرس و يبدع و يبتكر الحلول المناسبة ثم يخطط ثم **يبادر بالتنفيذ من دون تسويف.** ذلك الإنسان الذي يتوقع احتمال حصول الفشل، لكن لا يهابه، بل يعتبره إذا ما حصل، مدرسة يستفيد منها، فلا ييأس بل يعيد الكرة على الفور مغيّرا طريقة العمل على ضوء أسباب فشله في المحاولة أو المحاولات السابقة. و **لا يتصوّر إلا النجاح. و بفعل نفس "قانون الجذب الفكري"، يعمل بحسب تصوّره الإيجابي هذا، فلا ينجذب إليه إلا النجاح و التوفيق و التفوق.** و مثل هذا الإنسان، حيثما وُجد، لا يأتي إلا بخير لا في حياته الخاصة و لا في حياته العامة.

و لا يتم بناء ذلك الإنسان المنشود في بلادنا و بحسب نظرنا للأمور، إلّا

1. بالعودة إلى **مدرسة اكتساب المعارف و تنمية المواهب مع تقوية حب الفضول و الاستطلاع و رفع التحديات و عشق الأمور الجميلة و الأخلاق الفاضلة**

قالَ هارونُ الرشيدُ لِمُؤَدبِ ولدِهِ: «أَقْرِئْهُ القرآنَ وعرفْهُ الأخبارَ ورَوهِ الأشعارَ، وعلمْهُ السنَنَ وبَصرْهُ بِمَواقعِ الكلامِ وبَدْئِهِ، وامنَعْهُ مِنَ الضحكِ إلا فِي أوقاتِهِ، ولاَ تَمُرن بِكَ ساعةٌ إلا وأنتَ مُغتنِمٌ فائدةً تُفيدُهُ إياهَا».
فمثل تلك المدرسة هي التي عرفها المغرب في الخمسينيات و الستينيات، و ليس المدرسة التي أعقبتها و التي حشرت نفسها في مجرد **محو الأمية لمدة ست سنين من عمر تلميذها**

2. بالكف عن **استصغار عقول تلاميذ الابتدائي.**

الذي كثيرا ما نغفل عنه هو أن عقول صغار السن أرض جد خصبة لاكتساب المعارف و المهرات و الكفايات. الطفل يولد بطبعه فيلسوفا صغيرا، مندهش لاكتشاف العالم من حوله و دائم السؤال و التساؤل بفضول عظيم لفهم و استيعاب كل شيء يعترض حواسه و ذهنه. لكن الكبار من فرط جهلهم بطبيعة الأطفال يستصغرون عقولهم من دون وجه حق، فيقمعونهم حين وضعهم الأسئلة، و من تم يقتلون فيهم بالتدريج فضول الفيلسوف الصغير.
لكنك تجدهم اليوم أمام الحاسوب، الذي لا يقمع فضولهم، أساتذة في الإعلاميات بالنسبة لمن حولهم من الكبار الذين تعوّدوا على استصغار عقولهم.

3. بالعدول عن **بيداغوجية الحشو العقيم**
البداغوجية التي تجعل من اكتساب المهارات les habilités هدفا في حد ذاتها، في حين ما هي إلا آليات في خدمة الكفايات les compétences ou aptitudes
4. باعتماد **بيداغوجية التحدي** المفرزة لفئتي **المتفوقين** و **المتوسطين**
البيداغوجية التي تجعل المتعلم على الدوام في أوضاع تستدعي التفكير لحل المسائل و المشاكل.
5. باعتماد **التوزيع المبكر لتلاميذ نهاية الابتدائي** بحسب مؤهلاتهم الطبيعية بين
-- **التعليم العام** المتطلب للمهارات الفكرية الخالصة
-- **التكوين التقني** المتطلب لمزيج من المهارات الفكرية و اليدوية مع غلبة الأولى على الثانية
-- **التكوين المهني** المتطلب لمزيج من المهارات الفكرية و اليدوية مع غلبة الثانية على الأولى

و ذلك حتى ينال كل تلميذ التعليم الذي يليق بمؤهلاته، فلا يجر الضعيفُ المتفوقَ و المتوسطَ إلى الأسفل.
جمع كل فئات التلاميذ في التعليم العام بالثانوي الإعدادي يتسبب في تسطيح المستوى العام من الأسفل: le nivelage par le bas.
و بالتوجيه المبكر في نهاية الابتدائي يتلقى الضعيف التعليم الذي يليق به و لا يشوش و لا يضيق على غيره من المتفوقين و المتوسطسن.
6. باعتماد مبدأ **محاسبة المتنفذين الإقلميين في المؤسسات التعليمية على نتائج تسييرهم و تدبيرهم** في نهاية كل سنة دراسية
و هنا يكمن مربط الفرس و سر نجاح كل خطة إصلاح، سيّما في التعليم.

ينص **"قانون الجذب الفكري"** على أن مجريات حياتنا اليومية أو ما توصلنا إليه إلى الآن هو ناتج لأفكارنا في الماضي، وأن أفكارنا الحالية هي التي تصنع مستقبلنا. لذا بالتركيزعلى مواصفات الإنسان المنشود بناؤه نبني حتما إن شاء الله المدرسة المنشودة.

ذ. المصطفى حميمو

البقية....